مصطفى صادق الرّافعيّ مفكرًا إسلاميًّا وأديبًا

عوض الله محمد علي الداروتي*

يعدّ العصر الحديث من العصور المهمة في تاريخ الفكر والثقافة الإسلاميّة، والأدب بنوعيه شعراً ونثراً، فإذا نظرنا إلى تراثنا القديم، نجد أن القدماء عبّروا عن حياتهم، التي تتمثل في التقاليد والأصول الثابتة، وفي تلك الأيام كانت العربيّة لا تتعدى حدودها الضيقة، ولما خرج العرب إلى العالم حولهم، واتسعت دائرة ملكهم عبّروا عن الأمة الإسلاميّة الكبيرة، التي وحدت بين أفرادها العقيدة الإسلاميّة الخالصة، واتخذت هذه الأمة من كتاب الله الكريم، وسنة رسوله ﷺ شرعة ومنهاجاً، ولغة وثقافة وأدباً، فأصبح الأدب بفضل هذا الدين الجديد معبراً عن هموم هذه الأمة فكريّاً وعقليّاً وثقافيّاً.

لقد كان روّاد الفكر و الأدب في العصر الحديث لسان حال هذه الأمة، والحاملين لهمومها وآلامها، والمتطلعين لتحقيق آمالها.

اتخذ هؤلاء الرواد الأدب وسيلة من وسائل توحيد الأمة الإسلاميّة، وهم في سعيهم الدءوب لتحقيق هذه الغاية، يرون أن الأدب يمكن أن يحقق الأهداف التي تتفق مع أهداف الإسلام، ومُثُله وقيمه الروحيّة والاجتماعيّة.

كان لآراء هؤلاء الرواد تأثير كبير في الحياة الفكريّة والأدبيّة، وقد أصبحت آراؤهم اللبنات الأولى للأدب الإسلامي الحديث.

* دكتوراه في الأدب من جامعة الأزهر، أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

والرافعي أحد الرواد الذين أسهموا في رسم الطريق الذي يقوم على الأسس الإسلامية الصحيحة، فإذا نظرنا إلى أدبه، نجد أن الصيغة الإسلاميّة، غلبت على أدبه في الروح والمضمون، وفي الأسلوب والشكل، فقد كان أدبه معبراً عن الأمة الإسلامية عامة، وهو في عمله هذا يسعى لكي يأخذ الأدب دوره في الحياة، وليعمل على خلق الأدب الإسلامي الذي يقوم على الفضيلة.

كان الرافعي مع حضارة الإسلام، وتراثه، مع الفكر العربي المتحرر، المقتبس من كل ما في الحضارات الإنسانية من جديد مفيد.

بعد أن عرف الرافعي دوره، وأخذ مكانه في المجتمع بدأ في التأليف، والأخذ والعطاء، فأخرج لنا ثقافة نقية خالصة من كل شائبة، صالحة للحياة لأنها تستند على قاعدة عريضة من التراث الإسلاميّ القديم.

فغلبت الصبغة الإسلاميّة على أدبه من حيث الروح والمضمون والشكل والأسلوب. كما كان عصره عصر ثورات سياسية وفكريّة وأدبيّة، فقد عاصر البارودي وشوقي وحافظ والمنفلوطي والإمام محمد عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول، وقد تركت هذه الحركات والشخصيات أثراً واضحاً في شخصية الرافعي، لأنه تجاوب معها بكل مشاعره.

حين قامت ثورة 1919م بزعامة سعد زغلول، تجاوب معها الرافعي، وكتب عنها وصورها في مقالاته المنشورة في الجزء الثاني من كتابه وحي القلم بعنوان: أحاديث الباشا".[1] كما نرى سعد زغلول يكتب مقدمة كتاب الرافعي **إعجاز القرآن** ويصف هذا الكتاب بقوله : "كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور ذكر الحكيم".[2]

لاحظ الإمام محمد عبده النبوغ المبكر عند الرافعي فأرسل له رسالة يشيد فيها بدوره، ويدعو له، وهذا هو نص الرسالة : "ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي

---

[1] مصطفى صادق الرافعي، **وحي القلم** (بيروت: دار الكتاب العربي)، ج1، ص262.

[2] مصطفى صادق الرافعي، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** (مصر: مطبعة المقتطف والمقطم، ط3، 1928م) المقدمة.

صادق الرافعي: زاده الله أدباً، لله ما أثمر أدبك، ولله ما ضمن لي قلبك، لا أقارضك ثناء بثناء، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء، ولكني أعدك من خالص الأولياء وأقدم صفك على صف الأقرباء. وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك، سيفاً يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل".[3] أراد الإمام محمد عبده بهذا الثناء أن يرفع من روح الرافعي، ويدفعه لمواجهة أعدائه، كما فعل حسّان بن ثابت في رده على مشركي قريش، ولو لم يعلم الإمام محمد عبده أن الرافعي مؤهل لهذا الدور لما قال.

عندما سمع الرافعي بالإمام محمد عبده تطلع لمقابلته، وتم له ما أراد، فأخذ عنه أفكاره، وتتلمذ عليه، وتأثر بفكره وبثورته الملتهبة تأثراً عميقاً.

من هذه المدارس الثورية استمد الرافعي أفكاره وفلسفته في الحياة. وحول كل هذه الثورات الوطنية التي عاصرها الرافعي، واشترك فيها كانت تدور مختلف التيارات الفكرية والأدبية في عصره. ولهذا نجد أن أدبه قام على أسس قوية، تحت راية فكرية إسلامية عميقة الجذور، تنطلق من تراثنا الإسلامي، وتعمل على تمكين اللغة التي تحمل تراث الإسلام الحضاري والأدبي، لغة القرآن الكريم، لم تخرج آدابه عن أهداف الإسلام ، و كانت خواطره وأفكاره ذات جذور تمتد إلى شريعة الإسلام، وقد كانت عواطفه كذلك صادقة تعبر عن إخلاص الأديب وصدقه، وقد قام وجدانه على القيم الإسلامية الغنية بخلق القرآن والسنة الراشدة. وقد اتخذ أسلوباً بليغاً يجعل من القرآن والسنة مثله الأعلى. لم يترك عقله للخيال والانطلاق، فقد جاء خياله متوازناً مع عقله، كذلك كان مضمونه يقوم على الفكرة الخلقيّة، وقواعد السلوك الإنساني، والإشادة بالفضائل وإظهارها في صورة زاهية، تبعث في النفس إعجاباً بها. فقد تمسك الرافعي بالفضيلة وسخّر أدبه لخدمة الدعوة الإسلامية والدفاع عن الدين الحنيف. جعل الرافعي من نفسه حامياً لهذا الدين مدافعاً عنه بلسانه، لأن كلمات الإمام وجدت عنده القبول، فجنّد نفسه للدفاع عن هذا الدين، واتخذ من نفسه رسولاً لغوياً بعث للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، وهو يعلم ما يواجه الجندي من صعاب.

---

[3] الرافعي، **وحي القلم**، مصدر سابق، ج9.

والرافعي قد عبر بقلمه عن هذا الاتجاه السامي في نفسه، بقوله: "والقبلة التي اتجه إليها الأدب هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها، فلا أكتب إلا ما يبقيها حيّة، ويزيد في حياتها وسمو في غايتها، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة، ولهذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا، حيث يخيل إلى دائماً أنني رسول لغوي بعث للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه، فأنا دائماً في موقف الجيش "تحت السلاح" له ما يعانيه، وما يحاوله ويفي به، وما يحتفظ فيه، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها".[4]

ويكشف الرافعي عن نفسه ويوضح طريقته في الكتابة، وكيف يعالج الأمور إذا عرضت عليه، ويرى أن مهمة الكاتب أن يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه، ويهيئ نفسه لأداء رسالته، وهو يملك الرأي الصائب والدليل والبرهان، قد يبدو له الأمر صعباً في البداية، لكنه في النهاية يصل إلى أهدافه. "فإذا اختير لرسالة ما شعر بقوة تفرض نفسها عليه، منها سناد رأيه ، ومنها إقامة برهانه، ومنها جمال ما يأتي به فيكون إنساناً لأعماله، وإعمالها جميعاً، له بنفسه وجود ولديها وجود آخر، ومن ثَمَّ يصبح عالماً بعناصره للخير أو الشر كما يوجه ويلقي في الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعي، يرى سهلاً كل السهل حين يتم، ولكنه صعب أي صعب حين يبدأ".[5]

ثم يتحدث عن دورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني، لأنها تختلف عن الأديب الذي يعتمد على قوة فكره وخياله، وعاطفته الصادقة والعالم الذي يكتب كتابة عملية فيرى "أنها دورة خلق وتركيب، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هي كأنما كسبت من روحه قوة، وأدل مما هي كأنما زاد فيها بضاعته زيادة. فالكاتب العلمي تمر اللغة في ذاكرته وتخرج كما دخلت عليها طابع واضعيها، ولكنها من الكاتب الباني تمر في مصنع وتخرج عليها طابعه هو، أولئك أزاحوا اللغة عن مركبة سامية، وهؤلاء عَلَوا بها إلى أسمى مراتبها وأتت مع الأولين بالفكر، ولا شيء إلاّ الفكر والنظر والحكم، غير أنك مع ذي الحاسة البيانية لا تكون إلاّ بمجموع ما فيك من قوة

---

4 محمد سعيد العريان، **حياة الرافعي** (بيروت: دار الكتاب العربي، ط3، د. ت)، ص15.

5 الرافعي، **وحي القلم**، مصدر سابق، ج1، ص15.

الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأي".[6]

ويضيف الرافعي متحدثاً عن السمو الأدبي بقوله: "وربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك، بأنه محير، ولكن الحسن كذلك، وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك".[7]

إن العصر الذي عاش فيه الرافعي كان عصر ثورات سياسيّة وفكريّة وأدبيّة، وقد تركت هذه الحركات أثراً واضحاً على شخصية الرافعي لأنه تجاوب معها بكل مشاعره، وقد كان الناس في ذلك العصر يتخاصمون حول مذاهب الفكر بين مؤيدين لحضارة الشرق والثقافة، أو لحضارة الغرب وعلومه، وقد كان رأيه واضحاً، فقد وقف الرافعي مع حضارة الإسلام وتراثه، مع الفكر العربي المتحرر المقتبس من كل ما في الحضارات الإنسانية من جديد مفيد.

ومن المعروف أن الرافعي في بداية هذا القرن كان أبرز المدافعين عن الثقافة العربيّة الإسلاميّة، التي كانت تتعرض لهجوم عنيف من قبل أولئك الأدباء الذين كانوا على اتصال وثيق بالثقافة الأوروبيّة.

وقد كان يرى أن الهجوم على اللغة وتراثها الأدبي لا يستهدف إلاّ الهجوم على الإسلام نفسه، لأن إضعاف العربية في نفوس أبنائها أو تشويهها من شأنه أن يباعد الناس عن القرآن الكريم والحديث الشريف.

وعلى هذا الأساس من الربط بين الدين واللغة كانت معاركه مع بعض أنصار الجديد، ممن تأثروا بالثقافة الأوروبيّة. وفي رأي الرافعي أن نهضة الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطيد، إلاّ إذا نهض بها الركنان الخالدان الدين الإسلامي واللغة العربية.[8]

---

6 المصدر السابق، ج1، ص17.

7 المصدر السابق، ج1، ص17.

8 إبراهيم محمد محمود الكوفحي، "محمود محمد شاكر وأستاذه الرافعي"، **مجلة الأدب الإسلامي**، تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية، العدد الحادي عشر، ربيع الأول، 1417هـ، ص51.

لا شك أن الرافعي كان يرقب تلك المؤامرات التي كانت تحاك ضد اللغة العربية بغرض القضاء عليها، لكي يسهل الطريق للنيل من المبادئ الإسلامية.

هناك فئة تنادي بالعامية، وتطالب بجعلها لغة الكتابة، وإلى جانب هؤلاء كانت هناك فئة تنادي بالفرعونيّة مذهباً وقومية، وهذه الفكرة لا شك أنها كانت تخدم الاستعمار الذي عمل على خلق حدود مصطنعة كما عمل على تقسيم الأمة العربية إلى أحزاب وشيع. وهناك من يعمل على صرف الأمة عن تراثها وأمجادها، ويتحمس للتراث الأوروبي قديمه وحديثه.

وكان هناك فريق آخر أشد خطراً هو فريق المجاهرين بالإلحاد. المنكرين رسالات الأنبياء والمرسلين. قد كانت الدعوات المتطرفة تعمل على تحقيق هدف موحد هو الحرب على اللغة العربية، لكي يخترقوا العقيدة الإسلامية والتشكيك في كل ما هو إسلامي، وإعلان الحرب على المظاهر الإسلامية، فقد كان الاستعمار يتربص بهذه الأمة وينتظر كل سانحة كي ينفذ مخططاته البعيدة، وقد وجد من بعض أبناء الأمة العربية أعواناً له.

كانت أصوات أصحاب الدعوة إلى مسخ اللغة العربية تعلو وترتفع، وقد وجدوا تشجيعاً من الاستعمار ومن بعض المستشرقين، ولكن أصوات المدافعين عن حرمة العربية الفصحى كانت أعلى.

كان الرافعي أديب الفكرة الإسلامية، وحامي حماها لم تعوزه الحجة، ولم يعجزه المنطق السليم في مواجهة هذه الفئة الضالة، فقد انبرى لهم يسوي حساباته معهم، وكانت معاركهم معه خاسرة، لأن آراءهم لا تقوم على أرض ثابتة فتهاوى الجدار على أصحابه، وسكتت أصواتهم الضعيفة.

جاء الرافعي في زمان كان الناس في حاجة لأمثاله، فقد هيأ نفسه ليكون المدافع عن حمى دينه، الذائد عن أمجاد لغة القرآن الكريم، مسلطاً قلمه الذي عرف بقوة البيان وفصاحة اللسان، والحجة الدامغة، فقد جعل هدفه الأول أن يكون حامياً لهذا الدين وللغته، لأن هذا شعور المسلم الذي يعرف أن المسؤوليّة فردية ولهذا يرى "أن

يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وما كان يرى في ذلك إلاّ أن الله قد وضعه في هذا الموضع، ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية، لا ينال منها نائل إلاّ انبرى له، ولا يقتحم عليها مقتحم إلاّ وقف في وجهه، كأن ذلك (فرض عليه) وهو على المسلمين فرض كفاية".[9]

فالرافعي قد جعل من نفسه مدافعاً عن اللغة العربية وعن كيانها الذي أراد له دعاة العامية وغيرهم أن يهتز عرشها، فقد ظل عرشها سامقاً، لأن الله سبحانه وتعالى جعلها لغة قرآنه الكريم، الذي ضمن له الحفظ والبقاء، وهيّأ من يقوم بالدفاع عن لغة القرآن الكريم.

ويرى الرافعي أن الأمة التي لا تحمي كتابها ولغتها، وتصون تاريخها الذي يرتبط بهذا الكتاب، تتخلى عن تاريخها، وتنسلخ عن جلدتها، وترتدي لباساً بعيداً عن تراثنا لأن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ صفة الأمة، والأمة تكاد تكون صفة لغتها، لأنها حاجتها الطبيعية التي لا تنفك عنها، ولا قوام لها بغيرها، فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة، واتصال الأمة بها، وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلاّ بزوال الجنسية، وانسلاخ الأمة من تاريخها، واشتمالها جلدة أمة أخرى.... وأن في العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدي على وجهه العربي الصحيح".

ويرى "أن القرآن الكريم ليس كتاباً يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب، إذ لو كان هذا أكبر أمره لتحللت عقده، وإن كانت وثيقة، ولأتى عليه الزمان،... إنما القرآن جنسية لغوية، تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً، حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطي هذا البسيط، ولو لا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس، وردهم إليها وأوجبها عليهم، لما اطرد التاريخ الإسلامي ، ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله،

---

9 العريان، **حياة الرافعي**، مرجع سابق، ص15.

ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة، ولا استقلت به الوحدة الإسلامية".[10]

اتخذ الرافعي منهجاً واضحاً في رده على خصومه، وكان له أسلوبه الخاص الذي يتسم بالشدة في القول، وقد عرف بهذا الأسلوب لأنه يرى أن هذه الطريقة في النقد لابدّ منها لمواجهة الذين يتحاملون على اللغة العربية ويعملون على طمس معالمها بدعوى التجديد، فالرافعي بحكم نشأته في بيت عرف باهتمامه باللغة والدين، وقناعته بأن هذه الاتجاهات لو تركت لأصبحت معاول هدم، قد تصدى لمواجهة هذه الآراء الهدّامة بشدته المعروفة، ولم يكن في هذا بدعاً، وإنما عرف النقد في زمانه بالعنف في الفكر والتعبير، والسخرية والتهكم عند الجانبين المتخاصمين، ونحن نرى أن الرافعي نصب نفسه حامياً للغة العربية، مدافعاً عن العقيدة، وهو حين خاض هذه المعارك يعلم ما تسببه له من مضايقات، وخلافات مع أصحاب الرأي الآخر، وقد جند نفسه في سبيل مواجهة هذه المعارك، وقد كانت معاركه دائماً ناجحة، لأنه يقف مع الحق، ويملك الدليل ويقيم الحجة الدامغة، وهو يعرف كيف يدخل على خصمه، قبل أن يدخل هذه المعارك يطلب من الله الهداية والرشد، وأن يجنبه الزلل، وفتنة الشيطان ــ وأن يعصمه حتى تكون آراؤه "في الحق البين مكان الليل في نهاره..".[11]

يبدو أن الرافعي عُرِفَ بالقدرة على الجدل والمحاجة والإفحام، فإذا تطاول واحد من الناس على الإسلام ومقدساته انبرى له مستعملاً وسائله التي عُرِفَ بها، لأنه يرى أن كرامة المسلمين أمانة في عنقه، فلابدّ من الرد على كل كلمة يرى أنها كافرة، فإذا ظهرت في الساحة قضية تحتاج إلى من يقوم بالرد عليها، فإن الأنظار تتوجه تلقاء (الرافعي وهو لا يتأخر ولا يتوانى في القيام بهذه المهمة، وهذا يذكرني قول طرفة بن العبد:

إذا القوم قالوا من فتىً خلت أنني   عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد[12]

من هذه المعارك ما كان بينه وبين طه حسين حول كتاب الرافعي **رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب**.[13]

---

10 المرجع السابق، ص15.

11 الرافعي، **تحت راية القرآن**، مرجع سابق، ص6.

12 الزوزني، **شرح المعلقات السبع**، معلقة طرفة بن العبد (بيروت: دار الجيل، 1979م) ص57.

13 الرافعي، **تحت راية القرآن**، مرجع سابق، ص 106.

أهدى الرافعي كتابه **رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب** لطه حسين، وكتب إليه رأيه في هذا الكتاب، ولكن طه حسين يرى أن الرافعي قَدَّمَ إليه هذا الكتاب بغرض الثناء عليه، يقول: "فقد كان يسألني أن أثني عليه، وقد كان على هذا الثناء حريصًا، وقد كان يدير في نفسه أني آمن إن أجبته إلى ما يريد، وأثنيت وأطريت، وأني معرض لحرب شعواء إن أبيت عليه الثناء والإطراء، وكان في كتابه أقرب إلى التضرع والتوسل منه إلى الوعيد والتدبير، وقد ضحكت من كتابه هذا وأهملته فيما أهمل، ثم نقدت فلسفته في الجمال والحب فأغضبه هذا النقد، ويظهر أنه أغضبه إلى أن أفقده رشده وصوابه".[14]

ويبدو أن النقد الذي دار بين الرافعي وطه حسين[15] كان لخلافات شخصية، كان الرافعي يتخذ النقد وسيلة للانتقام والثأر، يتحامل على خصمه طه حسين ويدخل في رده العداوة الشخصية، لأن كلا منهما كان يُكِنُّ لصاحبه هذه العداوة التي ظهرت في الصحف التي كانت تصدر آنذاك، وكان لكل منهما أنصاره.[16]

ثم كانت المعركة بينه والعقاد حول كتاب الرافعي **إعجاز القرآن** يحكي الرافعي قصته مع العقاد بصدد هذا الكتاب في حوار مع سعيد العريان فيقول: "...وجلسنا نتحدث فسألته الرأي في إعجاز القرآن، فكأنما ألقيت حجراً في ماء آسن... فمضى يتحدث في غضب وانفعال، كأن ثأراً بينه وبين إعجاز القرآن، لقد كانت عصبية الرافعي للقرآن جعلته ينشر عدة مقالات في العقاد بعنوان "على السفود" جمعت فيما بعد في كتاب يُعَدُّ من أشد وأعنف ما كتب في نطاق النقد الأدبي".[17]

ومن هذه المعارك ما كان بينه وبين الجامعة المصرية عندما أنشئت عام 1907م، وقد أخذ عليها أنها لا تدرس الأدب العربي دراسة مبتكرة نافعة.

أول ما بدأ في هجومه على هذه الجامعة، عندما نشر مقالاً في إحدى الصحف

---

14 العريان، **حياة الرافعي**، مرجع سابق، ص185.

15 حسين، طه، **حديث الأربعاء** (مصر: دار المعارف، 1953م) ج3، ص106.

16 العريان، **حياة الرافعي**، ص158.

17 المرجع السابق، ص185.

حمل فيه على الجامعة، وعلى أساتذتها، وعلى منهج الأدب العربي فيها، فما كان من الجامعة إلاّ أن استجابت لمقاله، ونشرت الدعوة بين الأدباء لتأليف كتاب في آداب اللغة العربية، رصدت له جائزة مقدارها مائة جنيه على أن يقدم إليها بعد سبعة أشهر من تاريخ الإعلان، بدأ الرافعي نفسه في تأليف كتاب في الأدب، هو كتابه المعروف **تاريخ آداب العرب**.[18]

ليس من شك في أن مقالات الرافعي في هدم كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين كانت ذات تأثير كبير، ألبت الناس عليه، وعجز عن الرد على الذين واجهوه بالنقد، فسكت ثم أعلن توبته، جمع الكتاب وأعدم وحوكم طه حسين قضائياً وفصل من الجامعة، وقد كانت مقالة الرافعي بعنوان: قال إنما أوتيته على علم، بل هي فتنة.[19]

"وكانت له معركة أخرى مع مجمع اللغة العربية، هاجم المجمع في مقالات نقدية".[20]

"أما المعركة الأخرى فقد كانت مع النشيد الوطني، وقد عرف الرافعي بأناشيده الرائعة، مثل نشيد (حماة الإسلام) ونشيد (الاستقلال). ولما علم أن اللجنة فضلت عليه نشيد أحمد شوقي، انتزع نشيده من اللجنة، وأعلنه بين الناس ملحناً، فكان له أثر بعيد، ثم أعلن حربه على هذه اللجنة".[21]

ومعركته مع حسن القاياتي حول تفضيل الكلمة الجاهلية على الآية القرآنية. وذلك حين قام القاياتي بنشر مقال في صحيفة **كوكب الشرق** القاهرية في 27 أكتوبر 1922م، تهجم فيه على الأسلوب القرآني حينما أجري موازنة بين قول عربي مأثور هو "القتل أنفى للقتل" وبين الآية القرآنية ﴿وَلَكُم فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:179).

---

18 محمد عبد المنعم خفاجي، **دراسات في الأدب العربي الحديث ومدارسه** (بيروت: دار الجيل، 1992) ج2، ص383؛ الرافعي، **تحت راية القرآن**، مرجع سابق، ص74.

19 الرافعي، **تحت راية القرآن**، ص134.

20 خفاجي، **دراسات في الأدب العربي الحديث** ومدارسه، مرجع سابق، ج2، ص389.

21 العريان، **حياة الرافعي**، مرجع سابق، ص185.

وذهب الكاتب إلى تفضيل الجملة المأثورة على الآية الكريمة.

قرأ هذا المقال الأديب محمود محمد شاكر، فثارت ثائرته وأخذ يستعرض الأدباء القادرين على الرد على هذا الماجن، فلم يجد غير الرافعي. كانت هناك علاقة قوية بين شاكر والرافعي، وقد أشار شاكر إلى هذه العلاقة التي كانت تربطه بالرافعي، فهي علاقة التلميذ بأستاذه، يقول شاكر: " قرأت للرافعي **كتاب المساكين** فنازعتني نفسي إلى مراسلته لأصل ما بيني وبينه، فكتب إلي كتاباً رقيقاً كنور الفجر".

ثم قال: "عرفت الرافعي معرفة الرأي أول ما عرفته معرفة الصحبة فيما بعد، وعرفت هذا على ذاك، فيما بيني وبين نفسي، فلم أجد إلاّ خيراً مما كنت أرى، وتبدت لي إنسانية هذا الرجل كأنها نفحة تجاوب أختها في ذلك الأديب الكاتب الشاعر. وظفرت بحبيب يحبني وأحبه، لأن القلب هو الذي كان يعمل بيني وبينه، وكان في أدبه مس هذا القلب).[22]

أرسل شاكر للرافعي خطاباً يستحثه على النهوض بهذه المهمة، التي يرى أنه لا يستطيع أن يقوم بها غيره. قرأ الرافعي هذه الرسالة، واطلع على المقال، وأعد رده على الكاتب، وقام بنشره في جريدة **البلاغ** القاهرية في نوفمبر 1922م تحت عنوان "كلمة مؤمنة في رد على كلمة كافرة".[23]

قال الرافعي في بداية حديثه:

تلقيت كتاباً هذه نسخته:" أكتب إليك متعجلاً بعد أن قرأت "كلمة كافرة" في كوكب الشرق الصادر مساء الجمعة 27 من أكتوبر، كتبها متصدر من نوع قولهم حبذا الإمارة ولو على الحجارة. وسمي نفسه "السيد"، فإن صدق فيما كتب صدق في هذه التسمية. طعن القرآن وكفر بفصاحته، وفضل على آية من كلام الله جملة من أوضاع العرب، فعقد فصله بعنوان "العثرات" على ذلك التفضيل، كأن الآية عثرة من

---

[22] إبراهيم محمد محمود، "محمود شاكر وأستاذه"، **مجلة الأدب الإسلامي**، رابطة الأدب الإسلامي العالمية، س3:11، ربيع الأول 1417هـ، ص50.

[23] الرافعي، **وحي القلم**، ج3، ص397.

عثرات الكتاب يصححها، ويقول فيها قوله في غلط الجرائد، والناشئين في الكتابة، وبرقع وجهه، وجبن أن يستعلن، فأعلن بزندقة أنه حديث في الضلالة.

استمر شاكر في حديثه للرافعي مُظهراً غضبه فيقول: غلى الدم في الرأس حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب "القتل أنفى للقتل" على قول الله تعالى في كتابه الحكيم ﴿وَلَكُم فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة:179).

فذكرت هذه الآية القائلة ﴿وَإِنّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (الأنعام:121)، وهذه الآية ﴿شَيَاطِينُ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ (الأنعام:112)، ثم هممت بالكتابة فاعترضني ذكرك، فألقيت القلم لأتناوله بعد ذلك، وأكتب به إليك.

نرى شاكر يحمّل الرافعي مسؤوليّة المسلمين في كلام الواثق من أن رد الرافعي سيكون مفحماً لصاحب المقال فيقول: في عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتب في الرد على هذه الكلمة الكافرة، لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية فيها، فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس، جعلت البرَّ فاجراً، وزادت الفاجر فجوراً. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُم خَاصَّةً﴾ (الأنفال:25).

ثم يضيف في رسالته قوله الذي يشهد بصدق الرافعي وأمانته: واعلم أنه لا عذر لك، أقولها مخلصاً يمليها عليّ الحقّ الذي أعلم إيمانك به، وتفانيك في إقراره، والمدافعة عنه والذود عن آياته، ثم اعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية، التي جعلت همّها أن تلغ ولوغها في البياني القرآني.

ولست أزيدك فإن موقفي هذا موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين، وأذكر حديث رسول الله ﷺ: "من سئل علماً علمه فكتمه، جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار".[24]

يهتز الرافعي بهذا الموقف، وتثور ثائرته، والحقيقة أن الخطاب يأتي من مسلم

[24] ابن ماجة، **سنن ابن ماجة** (بيروت: المكتبة العلمية، 1980) المقدمة، ص24.

صادق فيما يقول، وقد كان شاكر بإمكانه أن يقوم بالرد على صاحب المقال ولكن الأمانة العلمية جعلته يفسح المجال إلى من هو أقدر منه في هذا الميدان. وقد كان الرافعي عند حسن ظن الناس به، فتولى الأمر بروح المؤمن المجاهد الذي يذود عن حوضه بسلاحه وقلمه.[25]

قام الرافعي بالرد على صاحب المقال، واتبع أسلوبه الذي عرف به. أخذ يستعرض آراء خصمه حول الموضوع، نقطه بعد أخرى، ثم يقوم بالرد عليها، وهو يملك الحجة والدليل معتمداً على ثقافته التي تقوم على التراث الإسلامي وما يحويه من أدلة قاطعة، فضلاً عن حفظه للقرآن الكريم الذي وعى معانيه، وأدرك تفسيره وتأويله.

استعان الرافعي بكتب التفسير، منها تفسير السيوطي، في كتاب **الإتقان**، وقد أورد حججاً دامغة على تفضيل الآية الكريمة على الجملة العربية. كما تتبع الرافعي الجملة من الناحية التاريخية، ونفي أن تكون جاهلية، وإنما هي مولده، وتحدى الكاتب في هذا لأن الكاتب لم يوثق الجملة.

ثم ينتقل الرافعي إلى البلاغة ليوضح تصور الكاتب في فهم الإيجاز في العربية فيقول:

"إن الذي في معاني الآية القرآنية، مما ينظر إلى معنى قولهم: "القتل أنفى للقتل" كلمتان ليس غير، وهما "القصاص حياة" والمقابلة في المعاني المتماثلة، إنما تكون بالألفاظ التي تؤدي المعنى بغيره أو يصل غيره به. إذ الموازنة بين معنيين لا تكون إلاّ في صناعة تركيبهما".[26]

ويزيدنا الرافعي وضوحاً فيقول: "يخيل إليّ أن الكاتب يقول: إن باقي الآية الكريمة لغو وحشو فهو حميلة على الكلمتين: القصاص حياة، يريد أن يقولها، ولكنها غصّ بها، وإلاّ فلماذا يلج في أنه لابدّ في التمثل، أي لابدّ من المقابلة، من رد الآية بألفاظها جميعاً. فإذا قيل إنه لا يجوز أن يتغير الإعراب في الآية ، ويجب أن يكون المثل منتزعاً

---

25 الرافعي، **وحي القلم**، ج3، ص397-406.

26 الرافعي، **وحي القلم**، مرجع سابق، ج3، ص401.

منها على التلاوة، قلنا: فإن ما يقابل الكلمة منها حينئذٍ هو هذا. ﴿فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، وجملتها اثنا عشر حرفاً، مع أن الكلمة العربية أربعة عشر، فالإعجاز عند المقابلة هو في الآية دون الكلمة".[27]

وأما قوله: ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فلو كان الكاتب من أولى الألباب لفهمها، وعرف موقعها، وحكمتها، وأن إعجاز الآية لا يتم إلاّ بها.[28]

ويرى الرافعي أن الإيجاز في الكلمة العربية ليس من الإيجاز الساخراً بل هو من الإيجاز الساقط، وليس من قبيل الآية الكريمة، ولا يتعلق به فضلاً عن أن يشبهه، إذ لأبُدّ في فهم صيغة التفضيل من تقدير المفضل عليه، فيكون "القتل أكثر نفياً للقتل من كذا" فما هو "الكذا" أيها الكاتب المتعثر؟ أثار الرافعي هذا الموضوع ليكشف جهل الكاتب باللغة، لأن أفعل التفضيل في اللغة لابدّ فيها من مُفَضّل ومُفَضّل عليه لكي يستقيم البناء في صيغة أفعل التفضيل، ثم يحاول الرافعي أن يقلل من عقلية الكاتب ويدلل على عدم فهمه لما يقول فلو فرضنا أن الكلمة التي تعلق بها الكاتب وثيقة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها من بيانهم فما الذي فيها؟ يجيب الرافعي بقوله:

1 - إنها تشبه قول من يقول لك: إن قتلت خصمك لم يقتلك، وهل هذا إلاّ هذا؟ وهل هو إلاّ بلاغة من الهذيان؟

2 - إنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عارم يتوثب على الحلال والحرام لا يخرج لشأنه إلاّ مقرراً في نفسه أنه قاتل أو مقتول، ولذلك تكرر فيها القتل على طرفيها، فهو من أشنع التكرار وأفظعه.

3 - إن فيها الجهل والظلم والهمجية، إذ كان من شأن العرب ألاّ تسلم القبيلة العزيزة قاتلاً منها، بل تحميه وتمنعه، فتنقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية، فمن ثَمَّ لا ينفي عار القتل عن قبيلة المقتول إلاّ الحرب والاستئصال قتلاً قتلا، وأكل الحياة

---

27 المصدر السابق، الصفحة نفسها.

28 المصدر السابق، ص402.

للحياة، فهذا من معاني الكلمة، أي القتل أنفى لعار القتل، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب.

4 ـ إن القتل في هذه الكلمة لا يمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلاّ إذا خصصته الآية فيجئ مقترناً بها، فهو مفتقر إليها في هذا المعنى، وهي تلبسه الإنسانية كما ترى، ولن يدخله العقل إلاّ من معانيها وهذا وحده إعجاز في الآية.[29]

أفحم الرافعي خصمه وأثبت له أن الكلمة التي يتعلق بها فيها خطأ تاريخي لأن الكاتب لم يوثقها. وأن هذه الكلمة تفتقد الإحساس الأدبي وهي أيضاً خالية من البلاغة والبيان والبعد اللغوي والتركيب الكلامي. بعد أن صرع الرافعي خصمه وتأكد له بأنه انهزم وتركه جانباً وجه خطابه إلى جمهور المؤمنين ليوضح لهم الإعجاز القرآني في الآية الكريمة: يقول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾. بدأ الآية بقوله : ﴿وَلَكُمْ﴾ وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان، وتلتمس في كمالها نظام النفس، وتقرر النفس بنظام الحياة، فإذا لم يكن هذا متحققاً في الناس فلا حياة في القصاص، بل تصلح حينئذٍ كلمة الهمجية، القتل أنفى للقتل، أي اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً فهذا هو الذي يبقيكم أحياء وينفي عنكم القتل . فالآية الكريمة بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الإنسانية العالية، لتوجه هذه الإنسانية في بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة.

قال في "القصاص" و لم يقل في القتل، فقيده بهذه الصيغة التي تدل على أنه جزاء ومؤاخذه، فلا يمكن أن يكون من المبادأة بالعدوان، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قلّ أم كثر.

تفيد هذه الكلمة "القصاص" بصيغتها "صيغة المفاعلة" ما يشعر بوجوب التحقق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع، وألا يكون قصاص إلاّ باستحقاق وعدل، ولذا لم يأت بالكلمة من اقتص مع أنها أكثر استعمالاً، لأن الاقتصاص شريعة الفرد، والقصاص شريعة المجتمع.

---

29 المصدر السابق، ص403.

من إعجاز لفظة القصاص هذه أن الله تعالى سمي بها قتل القاتل فلم يسمه قتلاً كما فعلت الكلمة العربية، لأن أحد القتلين هو جريمة واعتداء، فنزه سبحانه العدل الشرعي حتى شبهه بلفظ الجريمة، وهذا منتهى السمو الأدبي في التعبير.

ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل تشير إلى أنه سيأتي في عصور الإنسانية المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلاّ شراً من قتل المقتول، لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة مختلفة، على أن أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلاّ نية قتله، فعبرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي، وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة ما يجزئ عنها في الاتساع لكل ما يراد بها من فلسلفة العقوبة.

ومن إعجاز اللفظة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه، وعجيب أن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرت بك، فهي بذلك لغة شريعة إلهية معبرة عن الحقيقة، في حين أن كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها، ولذلك كان تكرارها في المثل كتكرار الغلطة، فالآية بلفظة "القصاص". تضعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها، والمثل بلفظة "القتل" يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها.

ولا تنس أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية محلها إذا هي تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمة، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرها، أما المثل فليس فيه إلاّ حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه إلاّ أن يفترس.

جاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التعريف، لتدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة، إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدمير الإنسانية، فلا تصلح الإنسانية بغير تقييدها.

جاءت كلمة "حياةٌ" منونة، لتدل على أنها هنا ليست حياة بعينها مقيدة باصطلاح معين، فقد يكون من القصاص حياة اجتماعية، وقد يكون فيه حياة سياسية، وقد تكون الحياة أدبية، وقد تعظم في بعض الأحيان عن أن تكون حياة.

إن لفظ "حياة" هو في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير "بنفي القتل" لأن نفي القتل

إنما هو حياة واحدة، أي ترك الروح في الجسم، فلا يحتمل شيئاً من المعاني السامية، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعي الساذج، وتعبير الكلمة العربية عن الحياة "بنفي القتل" تعبير غليظ عامي يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا تفكير، كالذي يقول لك: إن الحرارة هي نفي البرودة.

جَعْل نتيجة القتل "حياةٌ" تعبيرٌ من أعجب ما في الشعر يسمو إلى الغاية من الخيال، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالاً، بل يتحول إلى تعبير علمي يسمو إلى الغاية من الدقة، كأنه يقول بلسان العِلم: في نوع من سلب الحياة نوعٌ من إيجاب الحياة.

فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها إلاّ ما تمت به من قوله: ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ فهذا نداء عجيب يسجد له مَن يفهمه، إذ هو موجه للعرب في ظاهره على قدر ما بلغوا من معاني اللب، ولكنه في حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع، هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبي، أو وراثة محتومة، أو حالة نفسية قاهرة، إلى ما يجري هذا المجرى، فمن ثَمَّ يرون أن لا عقاب على جريمة، لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى، وهذه فلسفة تحملها الأدمغة والكتب، وهي تحول القلب إلى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع، فنبههم الله إلى ألبابهم دون عقولهم، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي، بل هي قبل ذلك باللب والبصيرة، وفلسفة اللب هذه هي آخر ما انتهت إليه فلسفة الدنيا.

وانتهت الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهي كلمة من لغة كل زمن، ومعناها في زمننا نحن: يا أولى الألباب ، إنه برهان الحياة في حكمة القصاص تسوقه لكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد.

عرض الرافعي هذه الوجوه في شرح الآية الكريمة، وتحليل معانيها ، وتوضيح ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز.ليبين قصور الكلمة العربية وعدم وقوفها أمام الآية القرآنية. "وبعد فإذا كان في الآية الكريمة ـ على ما رأيت ــ ثلاثة عشر وجهاً

من وجوه البيان المعجز، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاثة عشر مرة.

هذا الموقف يُبيّن نوعاً من أنواع الجدل عند الرافعي، لقد كانت مقالاته ذات تأثير مباشر على الأفكار الهدّامة التي ظهرت آنذاك أي في العصر الذي عاش فيه الرافعي، وبفضل هذه المقالات استطاع الرافعي أن يحفظ لهذه اللغة مكانها، وللدين هيبته، وأن يوقف كل معتدٍّ.

كان الرافعي يملك أسباب الانتصار على من يخالفهم الرأي بالأسلوب الذي عرف به. وضع الرافعي كتابه **تحت راية القرآن** للذود عن حمى الدين واللغة، وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات جمعها في كتاب واحد، وهذه المقالات تمثل المعارك التي خاضها الرافعي مع من حاولوا التعدي على اللغة العربية وآدابها.